بنية الشعر الجاهليّ وإشكالياته في الدراسات الحديثة: طه حسين أنموذجا

د مذكر ناصر القحطاني
جامعة الحدود الشمالية
المملكة العربيّة السعودية

الملخّص العربيّ:

إنّ دراسة الشعر الجاهليّ في الكتابات الحديثة من شأنها أن تثري الدرس النقديّ الأدبيّ، وفي هذا السياق يتنزّل هذا البحث الذي نسعى فيه إلى دراسة بنية الشعر الجاهليّ وقضاياه من خلال آراء طه حسين، وقد حاولنا في هذا البحث أن نبيّن أنّ بنية الشعر لم تكن متماسكة مؤتلفة بل هي بنية قابلة للتفكيك والنقد وتقويض المسلمات التي قامت عليها لاحقا، وإنّ إشكاليات كثيرة تتعلّق بالشعر الجاهليّ لعلّ أهمّها أنّ هذا الشعر لم يكن محايثا للجاهليّة وأنّه كان منتحلا في مواضع كثيرة.

الكلمات المفاتيح: شعر جاهلي، الشكّ، انتحال، إسلام.

Abstract

The importance of studying the Pre-Islamic poetry in modern writings is paramount in enriching the studies in literary criticism. This study is considered to have such importance in which we tend to study the structure of the Pre-Islamic poetry and the issues related, through the opinions of Taha Hussein. The study tries to explain that poems were not strictly coherent and built; hence their conventional norms could be deconstructed and criticized. There are many problems related to the Pre-Islamic poetry and most prominent one is that it was non immanent in the Pre-Islamic period, and it was spoofing in many topics.

Key words: Pre-Islamic, skepticism, spoofing, Islam

مقدّمة

ظل الشعر الجاهليّ على امتداد قرون معينا للدارسين والنقاد في مجال الأدب ونقده، وهو المصدر الأدبيّ الأوّل في الثقافة العربيّة باعتبارها ثقافة تأسست على القول الشعريّ وترديده، وفي هذا الطور انبرى الباحثون يقلّبون النظر في شفاهيّة الشعر الجاهلي وصاغوا النظريات وأفردت الكتب في نقده لاستجلاء مميّزات نظمه وتداوله بين الشعراء، أمّا بعد التدوين فقد أثيرت قضايا أخرى تتصل أساسا بهذا الشعر وما تعلق به من قضايا مثل الانتحال وغير ذلك من القضايا[1]، ومن أهداف هذا البحث إعادة النظر في الشعر الجاهليّ من زاوية نقديّة قوامها النظر في تأصيل الشعر الجاهلي في الدراسات الحديثة متمثلة في رؤية طه حسين في الشعر الجاهلي؛ وهي إشكاليّة تستحق الدراسة خاصة وأنّ طرحها من جديد لا يعني تكرار ما قيل في الدراسات السابقة، بل نسعى إلى دراستها من وجهة نظر نقدية مخالفة للمتداول وما ذكر في الدراسات. ويهمّنا في هذا المنحى أن نشير أن ما نقصده بمصطلح التأصيل هو الأسس المعرفية وكيفيات تشكّل الشعر الجاهلي كمدونة مغلقة، و نقصد بالتأصيل أيضا جذور الشعر الجاهليّ وأسسه، وعمادنا في هذا مرجع أساسيّ به ينجلي الغموض وتتضح الغاية من الدراسة، وهو كتاب " الشك في الشعر الجاهليّ" للأديب طه حسين، فقد أسال كثيرا من حبر الدارسين لما فيه من تشكيك في الشعر الجاهليّ وإرساء نظرية جديدة في تأصيله، والكتاب دراسة مستفيضة للشعر الجاهليّ ولكنّه في الآن نفسه يحوي تأصيلا للشعر الجاهلي من ناحية ويضمّ ردودا على نظريّة القدماء في الشعر من ناحية أخرى. أمّا المنهج الذي سنعتمده في البحث فهو تحليلي نقديّ، وأما عناصر البحث فهي متفرعة إلى الإشكاليات التالية:

1-مدخل مفهوميّ:
أ- في حدّ البنية:
ب- الشعر المنطوق
ج- الشعر المكتوب :
2- الشعر الجاهلي وإشكالية التأصيل
أ- الشكّ في الشعر الجاهليّ
ب-انتحال الشعر
خاتمة

1-مدخل مفهوميّ:

أ-في حدّ البنية: نسعى في هذا البحث في كلّ محاوره أن نرتقي بالقارىء إلى طرح علميّ جدليّ حتّى في المفاهيم والمصطلحات، إذ أنّ طبيعة هذا البحث فرضت علينا منهجا علميّا جدليّا دون الوقوع في التبسيطات والشروح التي تخلّ بالشرط الأكاديميّ المطلوب في مثل هذه البحوث، ولا يسعنا في هذا المقام إلا العودة إلى المفاهيم لنقف على كيفيات التشكّل حتى تتحددّ لنا ملامح البنية العاضدة للثقافة العربيّة، فقد عرّف إيميل بنفنيست (Émile Benveniste) البنية بالنظام المنسّق الذي تتّحد كل أجزائه بمقتضى رابطة تماسك وتوقّف يجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات أو العلامات المنطوقة، التي تتفاعل ويحدّد بعضها بعضا [2]، وعرّفها أندريه لالاند (André Lalande) في معجمه بأنّها كلّ مكوّن من ظواهر متماسكة يتوقّف كلّ منها على ماعداه[3]، ويقصد بالبنية البناء بالمعنى العامّ للكلمة، وهي في الآن نفسه كلّ يمكن تجزئته ومعرفة عناصره وكيفيات اشتغالها، ونجد د.الحناش يؤكد "أنّ البنية هي اعتراف كلّ روّاد المدرسة البنيوية بنظام يعمل على ضوء قوانين.وهذا النظام يقوم ويتطوّر بناء على وظيفة هذه القوانين الداخلة دون الرجوع الى عناصر خارجية وهي تتميز بمايلي: الشمولية، والتحول والتنظيم الذاتي"[4].

ب-الشعر المنطوق: يتّخذ المنطوق شكل النصوص التي تمّ صونها حفظا، وهو الملفوظ المتداول بين الناس ومستندهم في ذلك الذاكرة. وقد تميّزت الفترة الجاهليّة بوفرة المنطوق، وفي هذا السياق يقدّم "والتر أونج" تعريفا مهمّا يمكن أن يوظّف إلى حدّ كبير فيما نحن بصدد تفسيره، فهو يعتبر المنطوق كلاما خطابيّا، ففي تعريفه للكلام الشفويّ يقول: " كانت الخطابة في الأصل فنّ الكلام أمام الناس، أي فنّ الخطاب الشفاهيّ، من أجل الإقناع (بمعنى بلاغة المجادلة ومحاكمة الأمور)، أو لعرض الأفكار والمعلومات (بمعنى البلاغة الاستعراضيّة) "[5]. ويتّضح لنا أنّ أونج يعتبر الشفاهية أو المنطوق هو الخطابة أو فنّ الخطاب الشفاهيّ، لأنّه يقوم على الاسترسال وشدّ انتباه القارئ. وهي في الأساس تبدو لغة منفلتة لاتحدّ بحدّ، بيد أنّ الخطيب أو الناطق بالكلام الملفوظ يتحكّم في مشافهته، وخير دليل على ذلك أنّ قائل الشعر هو خطيب بارع يلقي نصوصه دون لحن أو أخطاء، ولكن في الآن نفسه ثمّة جملة من المعايب التي تميّز الخطاب الشفاهيّ سنشرحها في أوانها.

إنّ المنطوق يرتبط بالإدراك، لأنّه ينبني على منطق عقليّ، وقد عبّر عنه الدارسون بتوصيفات مختلفة ولعلّ ما استرعى اهتمامنا ذلك الربط الذي عبّر عنه " جوديث قرين" في كتابه الرائد "التفكير واللغة"، إذ يقرّ بأنّ هذه العلاقة هي علاقة بين التفكير والذاكرة، يقول " جوديث قرين": "الذاكرة مستودع ديناميكيّ لأعمالنا الماضية يشيّد تجسيدا داخليّا لخبرتنا بالعالم، والتفكير الحالي يعتمد على مسارات العمليات العقليّة السابقة، وفي ذات الوقت ينشأ عنه إعادة تشكيل للخبرة التي تصبح هي ذاتها جزءا من سجلّ الذاكرة التجمّعي"[6] . فمن خلال هذا الطرح الفلسفيّ الذي قدّمه "جوديث قرين" تبدو العلاقة بين المنطوق الذي يستند إلى الذاكرة والتفكير متلازمين، وهذا يخرج الشفويّ من دائرة الانفلات وعدم الانتظام.

وفي هذا السياق، يمكن الإقرار أنّ مرحلة الشعر الجاهلي في الثقافة العربيّة، هي تمهيد محكم لتحوّل سيطرأ على بنية العقل العربيّ؛ هذا العقل المتطوّر في تفكيره وفي أنظمة تواصله. إنّ النظم الشفويّ في الجاهليّة لم يكن آنيّا؛ بل ثمّة وعي بضرورة صونه وتأبيده في الذاكرة الفردية والجماعية نظرا إلى غياب أدوات الكتابة وعدم تمكّن عرب الجاهليّة من الحصول عليها من الأمم الأخرى التي عرفت الخطّ والورق، لذلك سنرى هذا العقل الذي يشيد بالمنطوق يسير قدما نحو الكتابة، إنّه تحوّل مرتبط بتغيّر في نمط العيش والتحضّر وتعلّم الفنون والصنائع التي كانت العرب أبعد الأمم عنها.

ج- الشعر المكتوب : يمكن القول أنّ الشعر المكتوب هو مشكلّ ثان لبنية الثقافة العربيّة. ويرى العلماء أنّ الكتابة ارتبطت بالعلامة اللغوية فلاوجود إذن لعلامة لغويّة قبل الكتابة، ولكن في الآن نفسه لاوجود لعلامة لغويّة بعد الكتابة إذا ماعدنا إلى المرجع الشفاهيّ للنصّ المكتوب[7]، وقد تتّضح العلاقة أكثر بين الفكر واللغة في مرحلة المكتوب، وهذا ما يثبته أونج في كلامه: " ذلك أنّ الفكر يكمن في الكلام وليس في النصوص التي تأخذ معانيها جميعا من إشارة الرمز البصريّ إلى عالم الصوت"[8]. ولمّا كان المكتوب لاحقا للمنطوق، فإنه أشدّ إحكاما واسترسالا، وهو بذلك قد نوّع أدوات التواصل الكتابيّ مع ظهور الورق وتطوّر المجتمع العربيّ وبلوغه فنون الأمم الأخرى في الصنائع والمهارات.

لا يمكن للدارس أن ينكر الفجوة بين النظامين (الشفوي والمكتوب) في الثقافة العربيّة من جهة الأدوات التي يستند إليها في كلّ مرحلة، فالذاكرة هي أصل مرحلة المشافهة والورق هو مستند الكتابة، ولكن في الآن نفسه يتّضح لنا أنّ التباعد بين المرحلتين يعكس تداخلا بينهما تجلّى في حضور علامات المشافهة في النصوص المكتوبة، لذلك سنسعى إلى دراسة هذا التداخل في محور مستقلّ حتى ننتهي إلى نتيجة مهمّة مفادها أنّ للثقافة العربيّة بنية متكاملة متعاضدة، وهي تمثّل ملمحا خاصا بها بين الثقافات الكونيّة الأخرى، حتى أنّ "ولتر أونج" في كتابه " الشفاهية والكتابيّة" قدّم مقاربة يمكن توظيفها لدراسة اللغة العربيّة، وهذا ما أفادنا به المترجم في المقدّمة عندما قال متحدّثا عن الأهداف من ترجمة الكتاب أنّ الهدف الذي سيحصل هو: "إغراء الباحثين في الأدب العربيّ وطلاّبه بإعادة النظر في هذا الأدب، قديمه وحديثه في ضوء التقابل بين الشفاهية والكتابيّة "[9].

2-الشعر الجاهلي وإشكالية التأصيل

لعلّ أهمّ ما يميّز الشعر الجاهليّ عن بقية التراث العربيّ أنه مثّل نقطة بداية في دراسات الباحثين، فهو أهمّ ما ميّز حياة العرب في الجاهلية، فعكس حياتهم البدوية ونمط عيشهم ورؤيتهم إلى العالم، ففيه تمثّلوا أنظمتهم الرمزية وحوى توق الجاهليّ إلى حياة الصحراء وما يكتنفها من نمط عيش خاص، فشكا شظف العيش ووقف على الطلل ووصف الحرب والوغى. ولكنّ أهمّ ميزة استرعت الدارسين هي أصول الشعر الجاهليّ ومنابته، إذ أنّ الشعر الجاهليّ قيل مشافهة وظلّ الخلف يردّده عن السلف إلى أن استقرّ مكتوبا ورغم ذلك لم يسلم من الانتحال والتشكيك في أصوله، لكنّ الشعر الجاهلي ميّز الثقافة العربية الإسلامية ورسم ملامحها البنيوية على امتداد قرون طويلة حتى أننا نرى الدارسين اليوم يعودون بالتمحيص والدراسة لهذا الإشكال المعرفي، لذلك أشرنا في بحثنا أنّ الموضوع شائك ومعقّد. وممّا يسترعي انتباهنا هنا ما أشار إليه الباحث " محمد البريري" في دراسته" الخصومة بين الوعي الشفاهي والوعي الكتابيّ" من أنّ تدوين الشعر نشأ غالبا بسبب علاقته الوثيقة بالقرآن الكريم، إذ عدّ القدماء الشعر الجاهليّ من أهمّ مظاهر تمثيل كلام العرب الذي تنزّل به الوحي، وقد تحوّل الشعر الجاهليّ من جراء ذلك إلى وثيقة لغويّة"[10]، ويفيد هذا الشاهد أنّ العلاقة بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وثيقة فقد مهّد الشعر لفهم المصطلحات والرموز في العربيّة ليجد العربيّ نفسه متقبّلا لعالم القرآن الكريم الرحب إلاّ أن لغة القرآن -وإن حافظت على سبكها- كانت معجزة ومؤثرة في الآن نفسه، لذلك لا يمكن أن ندرس الشعر الجاهلي بمنأى عن القرآن الكريم[11].

إنّ الباحث يظل مشدودا إلى إشكالية تأصيل الشعر الجاهليّ، فهل تأثّر الشعر بما سبقه من حضارات وشعر؟ هل كانت العرب قبل الإسلام على معرفة بما يحيط بهم من ثقافات ومعارف؟ وإن تمّ القبول بهذه الفرضيات ماهي قنواتهم في التواصل؟ هل هي كتابيّة أم سماعية؟ أم أنّ الشعر الجاهليّ هو شعر وليد بيئة الجاهلية ولم يخرج في صوره واستلهاماته من الإطار الجغرافيّ المحدود لبيئة الجزيرة العربيّة قبل الإسلام؟ كلّ هذه الأسئلة تظل الإجابات عنها نسبية نظرا إلى غياب دراسات دقيقة وعلميّة في هذا المنحى رغم ما لقي الشعر الجاهليّ من اهتمام كبير من قبل الدارسين قديما وحديثا، ولكنّ إشكاليّة التأصيل لم تدرس بالعناية اللازمة وهذا يعود إلى أسباب يمكن أن نوردها في النقاط التالية:

-أنّ مفهوم الشعر ظلّ غير مستقرّ في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وقد انصرف النقاد والدارسون إلى ضبط هذا المفهوم إلى أن أجمع على مفهوم خاص به.

-اهتمام الدارسين بأغراض الشعر الجاهليّ وصوره الفنية وأساليبه دون البحث في مسألة التأصيل، وهذا يعود إلى أن الذوق الجماليّ والفنّي طغى على بقية الإشكاليات التي ينبغي أن تدرس ومنها إشكالية التأصيل ومنابت الشعر الجاهليّ.

تتعلّق قضيّة التأصيل في الشعر الجاهليّ بإشكاليات جوهرية تعتبر من المسكوت عنه في تاريخ الثقافة العربيّة الإسلاميّة[12]، فالتأصيل مرتبط بالأصل والتراث والإبداع والخلق الفكريّ، وإنّ طرح هذه الإشكالية والبحث في جذور الشعر الجاهليّ يمكن أن ينتهي إلى نتائج مقلقة مثلما أثبت ذلك بعض الدارسين[13]، ومن بين هذه النتائج أنّ الشعر الجاهليّ ارتبط في بناه الفنية والأسلوبية بنصوص سبقته وأثرت فيه، وأنه شعر لا يخلو من المحاكاة والانتحال، وقد قال بذلك طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهليّ" ممّا أسال كثيرا من حبر النقاد العرب، ومثل هذه الآراء تفنّد القول بأنّ الشعر الجاهليّ ذو منبت جاهليّ صرف، ولعلّ هذا الرأي قد يكون تمهيدا لدى البعض للتشكيك في الموروث الثقافي الأدبي والعلميّ العربيّ، وقد بلغ القول بعديد الدارسين بأنّ تراث الثقافة العربية الإسلامية مستلهم من حضارة اليونان في حين أنّ الأمر كان من باب المثاقفة الواعية التي كانت لدى العرب، فقد علموا أنّ الانكفاء على الذات لا يطوّر المعارف ويبلورها فاتجهوا إلى دراسة ثقافات الأمم الأخرى وترجمتها والاستفادة منها مثل العلوم والطب والفلك وغيرها من المعارف، وقد كان للأدب والفلسفة النصيب الأوفر من هذه الترجمات التي ساهمت في تطوير النظرية الأدبيّة والفلسفية العربيّة، ولعلّ كتاب "فن الشعر" لأرسطو[14] قد كان له الأثر العميق في الأدب العربيّ والنظرية البلاغيّة والشعرية، بيد أننا سنسعى إلى بيان رأي طه حسين باعتباره من أكثر الكتب الحديثة إثارة للجدل في تأصيل الشعر الجاهليّ، ويمثّل هذا المصدر أساسا للبحث ومن أهمّ المراجع التي يمكن التعويل عليها لتوضيح الإشكاليّة المدروسة، ويقوم هذا الافتراض على أساس حداثة هذه المصنف والقيمة العلمية والأكاديمية لطه حسين.

أ- الشكّ في الشعر الجاهليّ : لاشكّ أن الأسس المعرفيّة والمنهجيّة التي بنى عليها الأديب طه حسين آراءه متينة ومتماسكة، فكتاب "في الشعر الجاهليّ"[15]، هو كتاب أجمل فيه طه حسين رؤيته النقدية في الأدب العربيّ القديم مستعينا بدراسات حديثة ومقاربات معاصرة في الشعر الجاهليّ، ويمكن الإشارة إلى أنّ الكتاب لم يكن بحثا مطوّلا رغم أنّ النتائج المتوصّل إليها كانت لها تأثير كبير في الدراسات العربيّة وفي تقويض الأسس القديمة التي قام عليها الشعر الجاهليّ، وقد استند طه حسين في تقديم آرائه على بعض الدراسات الغربية والاستشراقية[16] التي اطلع عليها واقتنع بطرحها لقضية تأصيل الشعر الجاهليّ. ويعود هذا الكتاب إلى جملة من المحاضرات التي ألقاها طه حسين، ومن ثمة جمعها سنة 1926، بيد أنّ الكتاب أثار ضجّة علميّة ودينية وسياسية في الآن نفسه، إذ أنّ المصنّف رغم ارتباطه بمجال الأدب والشعر الجاهليّ لكنه تمّ تأويله من قبل الفقهاء ومناهضي أفكار طه حسين بأنه مقدمة لتقويض تراث الأمّة وتمّ التحامل على طه حسين في مناسبات كثيرة إلى أن سحب الكتاب ثمّ أعيد طبعه في مناسبات أخرى في مكتبات رائدة

ليتم تداوله بين أيدي القراء، ويرى طه حسين أنّ ما توصّل إليه من نتائج كانت مقنعة بالنسبة إليه يقول:" ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أنيّ شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربيّ"[17]. ولعلّ هذا التمهيد هو لاحق لمتن الكتاب وخاصة عندما اشتدت الخصومة بين طه حسين وخصومه، لذلك يردف كلامه قائلا "وهذا الاقتناع القويّ هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزوّر. وأنا مطمئنّ إلى أنّ هذا البحث وإن أسخط قوما وشقّ على آخرين فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدّة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد"[18].

يوكّد طه حسين من خلال هذا الشاهد أن رأيه في الشعر الجاهليّ هو أساس العملية النقدية الصحيحة التي ستنير البحث العلميّ، وحتى نشرح هذا الأمر لابدّ من الإشارة إلى أهمّ ما جاء في هذا الكتاب وخاصة ما يتعلّق بتأصيل الشعر الجاهليّ، فقد توزّع الكتاب إلى أبواب وفصول، وهي إجمالا كتاب أول وكتاب ثان وكتاب ثالث، وتنضوي تحت كلّ كتاب إشكاليات فرعية مترابطة وفق منهج دقيق، فقد خصص الكتاب الأوّل للتمهيد ومنهج البحث ثم صلة حياة الجاهلية بالقرآن وبالشعر الجاهليّ، ثم ختمه بعلاقة الشعر الجاهليّ باللغة واللهجات، أمّا الكتاب الثاني فقد خصّص للانتحال في الشعر لينهي البحث بكتاب ثالث تحدّث فيه عن الشعراء الجاهليين، وإذا قرأنا الكتاب الأول نفهم أنّ طه حسين يعتمد منهجا مختلفا في مقاربته للشعر الجاهلي يقول:"يجب أن لا نتقيد بشيء وأن لا نذعن لشيء إلاّ مناهج البحث العلمي الصحيح" "[19]. ويعتبر طه حسين أن الشعر الجاهليّ وثيقة تاريخية يمكن دراستها بمعزل عن بقية النصوص الأدبية التي لحقتها سواء في مجال النقد أو التفسير والشرح التي يراها بمثابة الأغلال والقيود وبتجاوزها نصل إلى نتائج دقيقة تفيد الدرس العلميّ ويؤكّد رأيه بقوله " فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهليّة فلست أسلك إليها طريق إمرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير، لأني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك إليها طريقا أخرى، وأدرسها في نصّ لا سبيل إلى الشكّ في صحّته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهليّ"[20].

إنّ هذا الرأي من شأنه أن يؤسس إلى نظرة جديدة في المقاربات النقدية الحديثة، وهو يمثل تجاوزا لكلّ الدراسات السابقة لأنه يلغي تصوّرا قائما على أنّ نصوص الجاهليين هي المرآة العاكسة لحياة العرب في الجاهلية وتمثلاتهم الرمزية والذهنية[21]، لكنّ طه حسين يطوي هذه المصنفات ويعتبر القرآن الكريم أهمّ وثيقة للإخبار عن شعر الحقبة الجاهليّة، ونعزو هذا الرأي الذي ذهب إليه طه حسين إلى رغبته في الفصل بين النصوص الجاهلية سواء كانت شعرا أو أخبارا أو روايات وسيرا عن حياة الجاهليين لأنّ هذه النصوص متأثرة بالهوى والانتصار للقبيلة والذود عنها، لذلك قد تفقد هذه النصوص المصداقية، كما أنّ هذه النصوص لا يمكن أن تقرّ بأصول أخرى غير عربية للشعر الجاهلي لذلك رأى في القرآن المصدر الأساسيّ للشعر الجاهلي الذي يمكن أن يحيلناعن تلك الحقبة بأمانة لا سيما أنّ منفصل عنها تاريخيا بمدة تناهز القرن ونصف، وإنّ طه حسين يبني هذ الفرضية على أن القرآن الكريم نص ثابت غير متحوّل، ويرى مصدرا آخر إضافة للقرآن الكريم وهو الشعر الأمويّ يقول: " وأدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبيّ وجادلوه، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام. بل أدرسها في الشعر الأمويّ نفسه"[22].

ينوّع طه حسين في مصادره لدراسة الشعر الجاهلي والبحث في أسسه التي قام عليها، وإنّ هذه المصادر لاحقة مثلما أشرنا للفترة الجاهلية لكنّه يراها أصدق من النصوص الجاهليّة نفسها، وفحوى هذا المنهج قائم على مقارنة النصوص بعضها ببعض والكشف عن صدى السابق في اللاحق من النصوص، وأساسه المقارنة وجمع الأدلة عن أصول الشعر الجاهلي انطلاقا من نصوص أخرى، وهو منهج نصيّ حديث غربيّ استدعاه طه حسين لدراسة الشعر الجاهليّ ويرى فيه منحى تجديديّا يتجاوز الدراسات القديمة التي تمسّك بها الباحثون والنقاد ورأوا ضرورة السير فيما

سطروره من مناهج وتوصلوا إليه من نتائج يعدّونها يقينيّة في دراسة الشعر الجاهليّ وبنيته وأساليبه وصوره، ولكنّ طه حسين تجاوز هذه الدراسات وفنّدها بهذا المنهج النصيّ، ولذلك مثّل كتابه نشازا في المقاربات الأدبية الحديثة، ولعلّ أول مرتكز معرفيّ حاول طه حسين هدمه هو تجاوز الشعر الجاهليّ بوصفه مادة أولية للدراسة " فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمّة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن أبي خازم"[23].

ينطلق طه حسين في الاستدلال على نظريته في تأصيل الشعر الجاهليّ مبتدئا بالقرآن الكريم، فيشير إلى أنّ القارئ قد يستغرب هذا التمثّل إذ أنّ طه حسين يعي جيدا هذا الإشكال وما سيخلّف من إشكاليات في الدراسات النقديّة ولكنه يبيّن أنّ القرآن الكريم كان مرآة للحقبة الوثنيّة، ويستدلّ على فكرته بأن للقرآن أثرا في أنفس الناس فما إن نزل حتّى أعجب الناس بفرادة أسلوبه وبديع الكلام فيه وفي الآن نفسه قاوموه وعارضوه وجادلوا النبيّ فيه وهذا دليل على تمثّلهم لسوره وآياته والوقوف على أسراره ودقائقه، وهو في نظر طه حسين لم يكن جديدا على العرب وإنما تكمن الجدّة في الدعوة الجديدة الكامنة فيه، ولغته العربية التي كانت تتداول بين الناس في العصر الجاهليّ، وقد ذكر طه حسين أنّ القرآن الكريم جامع لما تقدّم من أخبار الأمم وعقائدهم: " في القرآن ردّ على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنيّة، وفيه ردّ على اليهود، وفيه ردّ على النصارى، وفيه ردّ على الصابئة والمجوس"[24]، فقد احتوى القرآن الكريم مادّة عزيزة عن الأمم المتقدّمة والحقبة الجاهليّة من ضمن الحقب التي اهتم بها القرآن وواكبها، وقد انتبه طه حسين إلى أن اهتمام القرآن بالحقبة الجاهليّة كان في الجانب العقديّ الدينيّ فهو "أصدق تمثيلا للحياة الدينيّة عند العرب من هذا الشعر الذي يسمّونه الجاهليّ. ولكنّ القرآن لا يمثّل الحياة الدينيّة وحدها، وإنّما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهليّ، يمثل حياة عقليّة قويّة، يمثّل قدرة على الخصام والجدال أنفق القرآن في جدالها حظا عظيما"[25] .

يرى طه حسين أنّ القرآن الكريم قد أقرّ بحجة هؤلاء المجادلين فلا يمكن أن تنطبق عليهم أوصاف الجهل والغباوة والغلظة والشدّة التي تم إلصاقها بعرب الجاهليّة قبل الإسلام. ومن هذا المنطلق يصبح القرآن الكريم في نظر طه حسين مرآة صادقة لحياة العرب في الجاهليّة وشعر الجاهليين، يقول: " أرأيت أنّ التماس الحياة العربيّة الجاهليّة في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمّونه الشعر الجاهليّ"[26]. ولشرح هذه الإشكالية في هذا البحث لابدّ من التنويه أنّ طه حسين له نظرية متكاملة في تأصيل الشعر الجاهليّ ونظرا إلى عدم اتساع المجال في هذه الدراسة فسنشير باختصار إلى الجوانب المهمّة في هذه المقاربة التي بناها أولا على عدم التعويل على النصوص الجاهليّة، بل على القرآن الكريم وأشعار المتأخرين باعتبارهما مرآة لحياة العرب في الجاهليّة، وقد يكتمل هذا الرأي بجانب منهجيّ قائم على انتقاء الآيات القرآنيّة الكريمة التي تفيد في هذا المنحى والاستدلال بشعر يوضّح بجلاء الصورة الجاهليّة وما تعلّق بها من نمط عيش وتفكير وتقاليد وأسس الشعر الجاهليّ، بل إنّ طه حسين يعتبر الشعر الجاهلي عقيما في هذا الباب رغم تزامنه مع حياة الجاهليين، ويذهب طه حسين إلى أنّ الشعر الجاهليّ لا يمثل حياة الجاهليين ولا حياتهم الدينية والعقليّة لأنه لم يخبر عنها وإنما وردت في القرآن في فترة لاحقة، ويؤكد طه حسين أنه أيضا لا يمثل اللغة العربيّة في الحقبة الجاهليّة باعتبار أنّ اللغة العربية في تلك الفترة لم تكن موحّدة لأنّ العرب لم يكونوا موحّدين ومنقسمين إلى قحطانيّة في اليمن وعدنانيّة في الحجاز، وأنّ القحطانية هم عرب عاربة فطروا على العربيّة أمّا العدنانيّة فقد اكتسبوا اللغة العربيّة اكتسابا، وهما لغتان في نظر الرواة لا تتفقان ويمتدّ التباين بينهما إلى اللفظ والنحو والصرف[27]، ولذلك يقول طه حسين" إنّ هذا الشعر الذي يسمّونه الجاهليّ لايمثّل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا"[28] وحجّته في ذلك أنّ من بين الشعراء الجاهليين من ينتسب إلى عرب اليمن إلى هذه القحطانيّة العاربة التي كانت تتكلّم لغة غير لغة القرآن، وهي لغة في نظر أبي عمرو بن العلاء مخالفة للغة العرب، وهذا الأمر أثبته البحث

في فيلولوجية اللغة بأنها غير عربيّة[29]. إذ الصلة بين اللغتين العدنانيّة والقحطانية هي كالصلة بين اللغة العربيّة الفصحى وإحدى اللغات الساميّة الأخرى. ومثل هذا الرأي من شأنه أن يقوّض الدراسات النقدية القديمة والمعاصرة التي حافظت على عربيّة الشعر الجاهلي ووحدة اللغة العربيّة[30].

إنّ النقاد العرب ودارسي الشعر الجاهليّ المعاصرين يؤكدون أنّ شعريّة القصيدة الجاهليّة هي الأكمل والأبلغ وأنّ لغة شعراء الجاهليّة هي الأفصح[31] لكنّ طه حسين ينقض هذه الآراء التي اعتبرها القدامى والمعاصرين من المسلّمات التي يسوقونها في شكل تبسيطيّ حين يقرّ أنّ شعر القحطانيين لا يختلف كثيرا عن شعر العدنانيين، وإنّ لغة هذا الشعر لا تختلف عن لغة القرآن الكريم، لكنه يستدرك قائلا أنّ المسألة أعمق من هذا التبسيط بكثير لأنها ترتبط بقضية كبرى تتمثّل في انتحال الشعر الجاهليّ يقول:" وهو أنّ هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانيّة قبل الإسلام ليس من القحطانيّة في شيء، لم يقله شعراؤها وإنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبيّنها حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت إلى انتحال الشعر الجاهليّ في الإسلام"[32].

يقرّ طه حسين أنّ التشابة بين شعر القحطانيين والعدنانيين هو تشابه وهميّ في أساسه لأنّ الانتحال قد كان له دور في صياغته بين القبيلتين، كما أنّ عامل اللهجة مثّل سندا أساسيا لدى طه حسين في تشكيكه في أصول الشعر الجاهلي، فهو يرى أنّ لهجات العدنانيين الذين رووا الشعر وتناقلوه لم تكن موحّدة، بل كانت توجد أكثر من لهجة، فهي قبيلة لم تكن متفقة اللغة ولا موحّدة اللهجة، أمّا ما وصلنا من شعر حسب الرواة منسوب إلى هذه القبيلة فلم نلحظ فيه اختلافا وتباينا دالاّ على اختلاف اللهجات، بل كان شعرا متّسقا متناغما ولذلك يذهب طه حسين إلى إقرار هذه الفرضيات " إمّا أن نؤمن بأنّه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربيّة من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلاميّ، وإمّا أن نعترف بأنّ هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها حملا بعد الإسلام. ونحن إلى الثانية أميل منّا إلى الأولى"[33].

إنّ هذا الرأي الذي سنفسّره لاحقا لا يمكن أن نعرضه جزافا دون أدلّة نظرا إلى ما يستتبعه من نتائج خطيرة على الدراسات الأدبيّة والنقديّة لكنّنا سنقدم الأدلّة التي ساقها طه حسين ونبيّن مدى وجاهتها، ويهمّنا في هذا الإطار أن نتقصّى استدلالات طه حسين على نظريّته الجديدة في تأصيل الشعر الجاهليّ، إذ تتّضح تدريجيّا في الكتاب وذلك وفق استرسال منهجيّ دقيق، وأساس هذا التمشّي في مرحلة أولى هو الانطلاق بأنّ اختلافا في اللغة واللهجة كان قائما في الشعر الجاهليّ لكن وقع حجبه ولم يشر إليه النقاد القدماء تجنّبا لما يمكن أن يثيره من إشكاليات تمسّ بمصداقيّة الشعر الجاهليّ، ويبقى السؤال المحيّر في نظر طه حسين كيف دوّن الخليل بن أحمد الفراهيدي هذا الشعر الذي جاء موزونا مقفّى رغم ما وجد من اختلاف بين قائليه وقد اتضح في تباين بين اللغات واللهجات؟ وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة واللغات المتداخلة خللا في أوزان الشعر وتقطيعه الموسيقيّ؟ وكيف لم تظهر الصلة بين الاختلاف في اللهجة وبين الأوزان الشعريّة التي كانت تصطنعها القبائل؟[34].

إنّ كلّ هذه الممهّدات التي ذكرها طه حسين هي مقدّمات نظريّة للشكّ في تأصيل الشعر الجاهليّ مثلما استقرّ في المدوّنات النقديّة والأدبيّة، وإنّ منهج الشكّ هذا قائم على أدلّة لغويّة فيلولوجيّة أسلوبيّة قائمة على اختلاف اللهجة وما يمكن أن يحتّم من تغيير في بنية القصيدة الجاهليّة؛ ويبدو واضحا أنّ طه حسين لم يكتف بالشكّ في الشعر الجاهليّ، بل تجاوز ذلك إلى التشكيك في المدوّنة النقديّة التي اهتمّت به وتناولته بالدراسة والتقييد، وقد قام بذلك نقاد ولغويون وعروضيّون ورواة أخبار وشعر، ويلمّح طه حسين أنّ هؤلاء كانت لهم اليد الطولى في تحريف الحقائق التاريخيّة واللغويّة والأسلوبيّة الخاصّة بالشعر الجاهليّ، رغم أنّ البعض ذكر إشارات ضعيفة في أساس هذا المشكل، فبقيت آراء مستثناة من المدوّنة النقديّة العربيّة ولا يعتدّ بها في الدراسات الأدبيّة القديمة والمعاصرة، ولعلّ مكمن الإشكال في نظر

طه حسين يتمثّل في السكوت عن التشكيك في الشعر الجاهليّ حتى لا يكون طريقا للتشكيك في تراث الأمّة وما أنتجته من معارف، بيد أنّ طه حسين يمضي قدما في الاستدلال على نظريّته المقوّضة للشعر الجاهليّ وأسسه فيقول إنّ من بين الآراء التي يمكن أن تعرّض نظريته للدحض والنقض قول القائلين إنّ الاختلاف في اللهجات ظلّ قائما حتى بعد الإسلام ولم يظهر فيه اختلاف ولم تؤثّر اللهجات في جوهر الشعر الجاهليّ الذي ظل متداولا في صدر الإسلام الأوّل والثاني، و قد جاءت بحوره موزونه ولفظه متّسقا، وإنّ هذا الإقرار شبيه بما كان عليه الحال في العصر الجاهليّ[35].

لا ينكر طه حسين اختلاف اللهجات وتباينها بعد الإسلام غير أنّ الأمر مختلف عمّا عليه في الجاهليّة إذ استقام الشعر للقبائل رغم تباين اللهجات بعد الإسلام، يقول طه حسين: " إنّ القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها، وتقيّدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيّد بها لو كتبت أو شعرت بلغتها الخاصّة، أي أنّ الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغة عامّة واحدة هي لغة قريش، فليس غريبا أن تتقيّد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة في شعرها ونثرها وفي أدبها بوجه عام"[36]، ومن هذا المنطلق يبرّر طه حسين سبب عدم الاختلاف في رواية الشعر بعد مجيء الإسلام ولأنّ اللغة المنتشرة حينئذ هي لغة قريش فقد وقع الاستغناء عن كل اللغات واللهجات الأخرى، كما أنّ العامل الدينيّ لعب دورا فعّالا في هذا الشأن، فالقرآن تمّ توحيده على لغة قريش تجنّبا للفرقة بين المسلمين في التلاوة والقراءة، ومن خلال هذا الاستدلال يتجاوز طه حسين ما من شأنه أن يتّخذ للمقارنة بين الجاهليّة والإسلام في رواية الشعر، فطبيعيّ إذن أن ينقل رواة الشعر شعر الجاهليّة بلهجة قريش بوصفها اللهجة الملزمة في القراءة والتداول في الإسلام، ويرى طه حسين أنّ المدوّنين القدماء ورواة الشعر والسير كان لهم الدور الكبير في طمس هذه الحقائق وعدم إظهارها للجمهور لأنها مسائل مختلف فيها ويمكن أن تؤدّي إلى إشكاليات جوهريّة في الثقافة العربية الإسلاميّة وتكون مدخلا إلى التشكيك في الحديث النبويّ والسير وكتب المغازي .

ب-انتحال الشعر: لم يغفل طه حسين قضيّة الانتحال في الشعر الجاهليّ بل عدّها قضيّة جوهريّة تمثل أساس نظريّته في تنسيب الشعر الجاهليّ والبحث عن مصادره وتاريخه، فقد أشار بدءا إلى أنّ قضيّة الانتحال لم تكن مقتصرة على أمّة العرب، بل هي شائعة في الثقافات، وتوجد حضارتان انتحل فيهما الشعر وهما الحضارة الرومانيّة واليونانيّة " فلن تكون الأمّة العربيّة أوّل أمّة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا، وإنّما انتحل الشعر في الأمّة اليونانيّة والرومانيّة من قبل وحمل على القدماء من شعرائهما وانخدع به الناس وآمنوا له "[37]، ونستنتج خلال هذا الشاهد أنّ طه حسين يقرّ أن الانتحال في الشعر الجاهليّ قائم ووجد وهو من البديهيات، وقدّم إلى ذلك بمقدّمات كثيرة، ولعلّ الانتحال في الشعر الجاهليّ هو أساس ما يرمي إليه طه حسين، وهو قوام نظريته، ويرى طه حسين أنّ عامل الانخداع بأسلوب الشعر الجاهليّ وصوره وبيانه ساهم إلى حدّ ما في تصديق الناس له وتداوله باعتباره شعرا نابعا من البيئة الجاهليّة ولم يكن منتحلا، أمّا الإيمان به فقد غدا سنّة أدبيّة يتداولها الناس من جيل إلى جيل[38]، ويؤكّد طه حسين أنّ فحوى نظريّته حديث وجوهرها لا ينسجم مع التوجّهات القديمة التي دأب عليها النقّاد والدارسون ولا تستجيب مقوّماتها إلى النظريّة الحديثة التي صاغها طه حسين لأنّها تعتمد منجها تاريخيّا مقارنيّا في تاريخ الشعر الجاهليّ وبنيته الداخليّة والظروف المحيطة بتكوّنه حتّى كتابته[39].

يذهب طه حسين إلى أنّ للسياسة دورا في قضية انتحال الشعر العربيّ، فهو يرى أنّ صلة العرب بالسياسة علاقة بنيوية، فهي لا تنفصل عن اليوميّ والمجتمع والعمران، وهي من المؤثرات المباشرة في المجتمع وأبنيته الرمزيّة، ومع مجيء الإسلام اقتنع العرب بضرورة صونه حتى يستمرّ ويعلو لذلك احتاجوا إلى تعزيزه بالعصبية فتلازم المستويان عند العرب ولم ينفصلا أبدا إلاّ مع ظهور الدولة الحديثة في بعض التجارب العربيّة[40]، ولمّا كانت العرب في حاجة إلى الذود على دينهم فقد احتاجوا إلى قوّة السلطان السياسيّ، ومن هنا كان دور الشعر جوهريا في

نصرة الإسلام وتعزيزه، كما كان له دور في مدح القبائل وهجائها لبعضها البعض، ولمّا كان الشعر الجاهليّ هو المعين الذي يستقي منه الشعراء شعرهم فكان لزاما " أنّ مؤرخ الآداب مضطرّ حين يقرأ الشعر الذي يسمّى جاهليّا أن يشكّ في صحّته كلّما رأى شيئا من شأنه تقوية العصبيّة أو تأييد فريق من العرب على فريق. ويجب أن يشتدّ هذا الشك كلّما كانت القبيلة أو العصبيّة التي يؤيدها هذا الشعر قبيلة أو عصبيّة قد لعبت- كما يقولون- دورا في الحياة السياسيّة لدى المسلمين"[41]. ويبدو واضحا أنّ طه حسين يريد أن يؤكّد أن مسألة الانتحال كانت لها دوافع سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة ساهم فيها نشوء الواقع الجديد للعرب مع ظهور الإسلام وتغيّر البنى المجتمعيّة ومقوّماتها[42]. ومن الآراء التي يدعم بها طه حسين توجّهه قوله: " فكان هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحّة النبوّة وصدق النبيّ"[43]. ومثل هذا الرأي عارضه كثير من النقاد ودارسي الشعر الجاهليّ لأنه قد يكون مدخلا للتشكيك في النبوّة، لكنّ طه حسين استدلّ بعديد القرائن التي تثبت ما ذهب إليه، ولعلّ أهمّها ما وجد في كتب الأخبار من قرائن نصيّة تمثّلت في أحاديث من أنّ الشعر الجاهليّ قد استبق في التبشير بالنبوّة ومهّد للبعثة المحمّدية[44].

ينبري طه حسين في الاستدلال على نظريته بتفكيك النصوص القديمة وتحليلها بمنهج علميّ، مقارنا بين الروايات مرجّحا بعضها على بعض وقد تنوّعت مصادره في سبيل إقناع القارئ بنتائج دراسته، وهذه المصادر متفاوتة زمانيا من شعر جاهليّ و شعر صدر الإسلام وسير مغازي، ولم يكتف طه حسين برواة محدّدين بل عدّد كثير منهم محاولا تقديم نظريّة منسجمة في الشكّ في الشعر الجاهليّ، وممّا يلفت الانتباه أنّ طه حسين يمضي قدما في الاستدلال رغم النتائج المهمّة والخطيرة التي جاء بها الكتاب. وهو لا يتردّد في تكرار القول "أنّ العصبيّة العربية حملت العرب على أن ينتحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهليّة بعد أن ضاع شعر هذه العشائر"[45]، فالشعر الجاهلي هو شعر منتحل وما وصلنا ليس إلاّ صورة مغلوطة للشعر الجاهليّ، إذ تمّت محاكاته وإعادة تشكليله من قبل رواة الشعر وذلك لعوامل مختلفة منها الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ، ويرى طه حسين أنّ الرواة القدماء كان لديهم الوعي بأنّ إشكاليات تحيط بالشعر الجاهليّ لكنهم لم يمضوا في شرح هذا الغموض، ويذكر طه حسين أمثلة على ذلك منها قوله: " فهم يجدون فيما ينسب لعدي بن زيد من الشعر سهولة ولينا لا يلائمان العصر الجاهلي، فيحاولون تعليل ذلك بالإقليم والاتصال بالفرس واصطناع الحياة الحضريّة التي كان يصطنعها أهل الحيرة"[46]. وتفسير كلّ هذا حسب طه حسين أنّ العواطف الدينيّة على اختلافها وكذلك العواطف السياسيّة هي من أهمّ الأسباب التي دعت إلى انتحال الشعر ونسبته إلى الجاهليين، وقد انقسم الشعر الذي يوسم بالجاهليّ إلى سياسيّ ودينيّ، ومن بين الاستدراكات التي وضعها طه حسين على هذين السببين في انتحال الشعر الجاهليّ هي ما تعلّق بالجانب القصصي وقد اشتهر فنّ القصص حسب طه حسين أيام بني أميّة وبني العباس ثم انحسر تدريجيا مع ظهور القراءة والكتابة فانصرف الناس عن هذا الفنّ واستبدلوه بالمكتوب، ولكنّ رغم ذلك فقد عدّه طه حسين من الأسباب التي ساهمت في انتحال الشعر إذ دأب الناس على الإنصات إلى القصص وما يتضمنه من متخيّل وتشويق لكنّ أثره كان عميقا في الشعر الذي نسب إلى الجاهليين[47]، ويذهب طه حسين إلى أنّ هؤلاء القصاص كان لهم ارتباط بالأحزاب السياسيّة وكانت توجّههم باختلاق الأقاصيص والمغازي المصطنعة خدمة لأحزابهم السياسيّة، فانشدّت القصص إلى عاملين مؤثرين هما السياسة والدين ولبّت أيضا حاجات الناس إلى ما يشغلهم ويشحذ هممهم ويصرف عقولهم إلى ما يبتغيه السلطان السياسيّ، ومن هنا تمّ تلفيق الشعر وإسناده زورا إلى الجاهليين والحال أنّه متنزّل في بيئة منفصلة تماما عن البيئة الجاهلية سواء في مستوى اللغة أو المتخيّل والأنظمة الرمزيّة، ثم تحولت هذه القصص في أحايين كثيرة إلى مواد ملهمة يتداولها السلف عن الخلف[48]. كما أنّ للشعوبيّة دورا في انتحال الشعر، ويقصد طه حسين بالشعوبيّة الحقد الذي استوطن بالأنفس جراء هزيمة الفرس للعرب ومن ثمّة كان لها الأثر في انتحال الشعر والأخبار وإضافتها إلى الجاهليين، وقد بدا ذلك منذ النصف الأوّل من للهجرة بعد استيطان العديد من الفرس وحذقهم العربية وتحزّبهم إلى أحزاب سياسيّة ونظمهم الشعر دفاعا عنها وذودا عن

مكانتهم بينها[49]، ويختم طه حسين بدور الرواة في انتحال الشعر الجاهليّ لكنها في نظره ليست بمنزلة الأسباب المتقدّمة رغم أنّها حمّلت الجاهليين ما لم يقولوا من الشعر والنثر، ويشير طه حسين إلى أنّ هولاء الرواة لم يعرفوا بالأخلاق بقدر ما عرفوا بالمجون والفساد فلم يكن غريبا عنهم التقوّل والتزيّد في الشعر ونسبته إلى قوم الجاهليين[50]، وفي هذا المنحى يقول طه حسين" كلّ شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة، والحياة السيئة حياة الفساق وأصحاب المجون، فإذا كان الأمر على هذا النحو فهل تظنّ أنّ من الحزم والفطنة أن نقبل ما يقول القدماء في غير نقد ولا تحقيق؟"[51]، ويختم طه حسين رأيه في الانتحال بالقول أنّ هذه الظاهرة لم تكن حكرا على العرب بقدر ما وجدت في الأمم الأخرى لكنّه يرى أنّ التطرّق إلى هذه الظاهرة مهمّ في الأدب العربيّ لأنه يخلّصنا من الرؤية التقليديّة ويمكن أن يطوّر الدرس الأدبيّ ونظرتنا إلى الشعر الجاهليّ، رغم إقراره أنّ المسألة دقيقة وتتطلب جهدا حتى نتجاوز هذه الرؤية الوثوقيّة في نظرتنا إلى التراث وتحديدا الشعر الجاهليّ.

خاتمة

كان طه حسين مجدّدا في نهجه الذي توخاه في التشكيك في الشعر الجاهليّ وانتحاله، وهو مبحث عويص لم يسبقه إليه من المحدثين العرب أحد إلاّ إذا استثنينا إشارات طفيفة وجدت في كتب القدماء ولم يعرها النقاد والدارسون أيّ اهتمام يذكر نظرا لأنها خلافيّة ونتائجها لا تستساغ لديهم، وقد قدّم طه حسين نظريته باسترسال متوخّيا منهجا علميّا تشكيكيا قائما على الاستقراء التاريخيّ والمقارنة بين الروايات ومستندا إلى أثر البيئة في تشكيل البنى الذهنية والرمزيّة للجماعات والأفراد، وإنّ المنهج الأنتروبولوجي كان مفيدا إلى حدّ كبير في التوصّل إلى نتائج مقبولة في رأي طه حسين، ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير إلى أنّ أساس هذه النظريّة قائم على اجتهادات وتأويل، إذ بقيت النتائج المتوصّل إليها نسبية خاصّة لدى أنصار القديم، فقد تمّت إدانة طه حسين بسبب هذا المصنّف وكان موقف خصومه أنّ مثل هذه الآراء هي مدخل للتشكيك في تراث الأمّة، لكن الكتاب لقي رواجا في المكتبات العربيّة ولدى كثير من النقاد المعاصرين وخفّت وتيرة السخط عليه وتمّ تناوله بالدراسة والتمحيص من قبل الباحثين، وقد سعينا في هذا البحث إلى إعادة القراءة والتفكيك لآراء طه حسين عسى نفيد القارئ بأنّ هذا الكتاب مهمّ في تطوير النظريّة النقديّة الشعريّة العربيّة، ويمكن تطوير آراء طه حسين استنادا إلى النظريات الحديثة في علوم النص حتى نصل إلى نتائج مقنعة دون الوقوع في تبنّي أطروحته أو معارضتها لأنّ هذا هو صميم البحث العلميّ السليم، مستندين في ذلك إلى قول طه حسين من أنّ أخبار الجاهليين لم تصل إلينا عن طريق رواية تاريخية دقيقة أو مادّة مكتوبة بل بواسطة القصص والأساطير، لذلك حريّ بالدارسين اليوم إعادة النظر في آراء طه حسين ومقارنتها بآراء القدماء طلبا لتقديم مقاربة علميّة للشعر الجاهليّ.

الهوامش

[1] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت لبنان، 1988.

[2] انظر، إيميل بنفينيست، مسائل في اللسانيات العامة، ج1، منشورات سيراس، 1995.

[3] انظر، (بنية) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، ، المجلّد الاول، طبعة 2. بيروت باريس، 2002.

[4] انظر، د.افريدو عبداللطيف، البنية والبنيوية من المفهوم الى الاصطلاح، مجلّة أصوات الشمال، عدد 27 جمادى الثاني 1434هـ.،7-5-2013.

[5] والتر أونج، الشفاهيّة والكتابيّة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 182، ترجمة حسن البنا عز الدين، 1994، ص 165، 166.

[6] جوديث قرين، التفكير واللغة، ترجمة د عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1992. ص، 25.

[7] الشفاهيّة والكتابيّة، ص، 124.

[8] المرجع نفسه، ص، 124.

[9] الشفاهيّة والكتابيّة، ص، 9.

[10] محمد بريري، الخصومة بين الوعي الشفاهيّ والوعي الكتابيّ، مجلّة الجسرة الثقافية، عدد1، جانفي 2010.

[11] نفس المرجع

[12] انظر، يحيى وهيب الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1.

[13] Margoliouth The Origins of Arabic Poetry Cambridge University Press, 1925.

[14] أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953.

[15] طه حسين، في الشعر الجاهليّ، دار المعارف للطباعة والنشر. دت.

[16] انظر، يحيى وهيب الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1. وانظر ايضا، Margoliouth The Origins of Arabic Poetry Cambridge University Press, 1925

[17] في الشعر الجاهليّ، ص 13.

[18] في الشعر الجاهليّ، ص 13.

[19] في الشعر الجاهليّ، ص 24.

[20] في الشعر الجاهليّ، ص 26-27.

[21] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت لبنان، 1988.

[22] في الشعر الجاهلي، ص 27.

[23] في الشعر الجاهلي، ص 28.

[24] في الشعر الجاهلي، ص 29

[25] في الشعر الجاهلي، ص 31.

[26] في الشعر الجاهلي، ص 35.

[27] في الشعر الجاهلي، ص 38.

[28] في الشعر الجاهلي، ص 41.

[29] في الشعر الجاهلي، ص 41.

[30] ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت لبنان، 1988.

[31] أحمد زغب، جمالية الشعر الشفاهيّ، نحو مقاربة أسلوبية سيميائية للنص الشعري الشفاهي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية 2006- 2007.

[32] في الشعر الجاهلي، ص 42.

[33] في الشعر الجاهلي، ص 45.

[34] في الشعر الجاهلي، ص 47.

[35] في الشعر الجاهلي، ص 47.

[36] في الشعر الجاهلي، ص 47-48.

[37] في الشعر الجاهلي، ص 56.

[38] يحيى وهيب الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1. ص 80.

[39] أنظر، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهليّ، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار العلم للملايين، 1979.

[40] محمّد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبيّة والدولة، معالم نظرية خلدونيّة في التاريخ الإسلاميّ، مركز دراسات الوحدة العربية، دت.

[41] في الشعر الجاهلي، ص 79-80.

[42] يحيى وهيب الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1. ص 97.

[43] في الشعر الجاهلي، ص 81.

[44] في الشعر الجاهلي، ص 81.

[45] في الشعر الجاهلي، ص 100.

[46] في الشعر الجاهلي، ص 100.

[47] في الشعر الجاهلي، ص 103.

[48] في الشعر الجاهلي، ص 105-108.

[49] في الشعر الجاهلي، ص 119-120.

[50] في الشعر الجاهلي، ص 130-131.

[51] في الشعر الجاهلي، ص 136.

المصادر والمراجع

المراجع العربيّة:

أ-الكتب

- إيميل بنفينيست، مسائل في اللسانيات العامة، ج1، منشورات سيراس، 1995.

-أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، ، المجلّد الاول، طبعة 2. بيروت باريس، 2002.

-جوديث قرين، التفكير واللغة، ترجمة د عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1992.

- محمّد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبيّة والدولة، معالم نظرية خلدونيّة في التاريخ الإسلاميّ، -مركز دراسات الوحدة العربية، دت.

- أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953.

- طه حسين، في الشعر الجاهليّ، دار المعارف للطباعة والنشر. دت.

- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ، ط1 دار الجيل، بيروت لبنان، 1988.

- يحيى وهيب الجبوري، المستشرقون والشعر الجاهليّ، دار الغرب الإسلامي، 1997.

ب – البحوث والمقالات

افريدو عبداللطيف، البنية والبنيوية من المفهوم الى الاصطلاح، مجلّة أصوات الشمال، عدد 27 جمادى الثاني 1434هـ،7-5-2013.

والتر أونج، الشفاهيّة والكتابيّة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 182، ترجمة حسن البنا عز الدين.

- محمد بريري، الخصومة بين الوعي الشفاهيّ والوعي الكتابيّ، مجلّة الجسرة الثقافية، عدد1، جانفي 2010.

- أحمد زغب، جمالية الشعر الشفاهيّ، نحو مقاربة أسلوبية سيميائية للنص الشعري الشفاهي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية 2006- 2007.

- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهليّ، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط1 دار العلم للملايين، 1979.

المراجع الانجليزية:

Margoliouth The Origins of Arabic Poetry Cambridge University Press, 1925.